

سيغموند فرويد و منهج التحليل النفسي مطبقا على الدين

Sigmund Freud's Application Psychoanalysis Method on Religion



ط. د. فاضلي إيمان*

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية —قسنطينة —

i.fadeli@univ-emir.dz

تاريخ الاستلام: 2025/02/07 تاريخ القبول 2025/05/05 تاريخ النشر 2025/06/03



ملخص: سنحاول في هذا البحث مناقشة آراء رائد مدرسة التحليل النفسي الطبيب النمساوي (سيغموند فرويد 1856-1939) حول منبع و أساس المعتقد الديني و العاطفة الدينية في النفس البشرية ،ليحاول لاحقا إثبات أن أديان التوحيد (اليهودية — المسيحية —الإسلام) أيضا تعود إلى ذات الجذر النفسي (عقدة أوديب =عقدة قتل الأب) و هذا ما سنستنتجه من كتاباته : (الطوغم و التابو) و (مستقبل الوهم) ثم (موسى و التوحيد) ، مع الإشارة أن غرضه الأساسي من هذا التوجه المضاد للأديان كان تحرير الإنسان من سطوة الدين و سيطرة رجاله و مؤسساته ليتمكن من استبدال الدين بأنظمة وضية أكثر احتراما لعقل الإنسان و مكانته في الكون في كتابه (قلق في الحضارة) .

الكلمات المفتاحية: علم الأديان ؛مناهج نقد الأديان الحديثة ؛ منهج التحليل النفسي ؛ عقدة أوديب ؛الأب السماوي ؛ الإنسان والدين والحضارة .

The Abstract:

This paper deals with Sigmund Freud's new opinions about the source of religious emotions which human being feels toward un-known being , by studying and analyzing elementary tribes 's behavior and rites which called (Totemism System), he attempted to expand his

* المؤلف المراسل

ideas within his books : (Totem and Taboo) , (The Future of illusion) and (Moses and Monotheism) .

Besides he aimed to set humans free of their religious illusions – as he declared - by explained the kind of those feelings in their deep Psycho-roots (Oedipus complex) ,so , humans could live naturally without any kind of obstacles and limits as we can see in his final book (Civilization and its Discontents) .

key words: Science of Religions; Modern Critic Methods of Religions; Psychoanalysis Method; Oedipus complex; Human and Civilization.

مقدمة:

منذ القرن التاسع عشر تصدرت الدراسات العلمية للدين قائمة مباحث العلوم الإنسانية المجددة و المستحدثة و منها علم النفس الذي دعا إلى دراسة المواضيع الكبرى في العلوم الإنسانية دراسة علمية و موضوعية على غرار مواضيع الحضارة ، الثقافة و الدين و قد تكونت لعلم النفس مدارس بعد انفصاله عن الفلسفة في القرن التاسع عشر ؛ منها المدرسة التجريبية و المدرسة الوظيفية ثم المدرسة السلوكية و كذا مدرسة التحليل النفسي و هي الأحداث ، و كان هدف كل هذه المدارس و الحركات هو التعرف على ماهية (الشعور الديني) و تحليل الإنسان من متعلقاته غير الصالحة للفترة المعاصرة و التي تجاوزها الزمن أو تخفيف وطأتها و سيطرتها على الإنسان بإدراك أسبابه الأولى و بواعثه في النفس البشرية ، و ذلك بالدراسة العلمية لكل متعلقات الدين و مكوناته الأساسية (المعتقد –الطقس –الأسطورة–الآخرة) و كذا الثانوية (الأخلاق و الشرائع –السير المقدسة –جماعة المؤمنين – السرائرية) للوصول إلى إثبات أن (الدين منتج نفسي بشري)، و قد اتفقت كلها على أن (الدين) لا علاقة له بالميتافيزيقا التي يدعيها المؤمنون به و إنما هو نتاج أسباب و ظروف ذاتية متعلقة بالإنسان ذاته ، و بظروف خارجية متعلقة به أيضا (اقتصادية و سياسية و إجتماعية) ، و قد كانت النظريات النفسية من بين النظريات المقدمة لعلم الأديان منذ القرن 19م ، و قد اعتمدت النظريات النفسية لنشأة الدين على البحوث الأنثروبولوجية و التاريخية التي قام بها السير (ماكس مولر

Edward B Taylor (إدوارد تايلر 1823-1900) و السير (1832-1917) Max Muller لتحديد منشأ الدين لدى الإنسان البدائي و التي كانت ترى في معظمها أن (الدين ينشأ و يعود إلى مشاعر الخوف و الرغبة و التعجب وعدم الفهم تجاه مظاهر الطبيعة ثم التعلق بقوة خفية و مخصصة و حامية من مشاعر الخوف هذه و التي يمكنها أيضا توفير تفسيرات مقبولة لكل ذلك اللبس ، أي أن الخوف ثم الرغبة في الفهم هما أصل ابتداء الدين عند الإنسان البدائي) ، و قد كانت دراساتهم تاريخية أنثروبولوجية مقارنة لذلك نجد أن (علم الأديان) يقف بين (علم التاريخ) من جهة و (علم النفس) من الجهة الأخرى ؛ فالأول يدرس تاريخ الأديان الماضية و الحاضرة ، الغابرة و الحية ، البدائية و المتطورة ، ثم يحدد نقاط التشابه بينها عن طريق المقارنة بينها لإثبات أن التشابهات بينها تدل على أصل واحد هو (الإنسان) و ليس الإله ، لأن (الإله) لا يمكن إثبات وجوده علميا حسب هذه النظريات فهو وجود غيبي ميتافيزيقي هذا عن علم التاريخ ، أما (علم النفس) فتولى دراسة البنى النفسية الأساسية للدين في النفس البشرية ؛ فدراسة العاطفة الدينية و تماثلاتها في حياة الإنسان البدائي ثم إثبات استمراريتها و تكرارها و تطورها من صور بدائية بسيطة إلى صور أكثر تعقيدا و سرائرية لدى المجتمعات البشرية كانت الهدف الأول لدراسة الدين سيكولوجيا ، إذا ، فعلم الأديان في جوهره هو (علم دراسة التدين و منابعه في النفس البشرية و حياة الإنسان منذ البدايات) فتكون بذلك الدراسة النفسية للدين و التدين أهم الدراسات و المواضيع التي يتطرق إليها (علم نفس الدين) الذي اهتمت به مدارس علم النفس الحديثة و نقصد (المدرسة النفسية التجريبية) و (مدرسة التحليل النفسي) ؛ أما الأولى فهي التي ترى إمكانية إكتشاف أساس الدين و منبعه في النفس الإنسانية عن طريق التجارب السريرية و الفيزيولوجية على الإنسان لأنها تعتقد أن الشعور الديني ذو أصل مرضي و اختلال فيزيولوجي أي أن الميل للإيمان بوجود قوى غيبية منقذة و قوية ناتج عن إختلال في الوظائف العضوية للإنسان

، حيث تعتمد هذه المدرسة على التحليلات و الإختبارات الطبيعية و النفسية للقوى العقلية للناس المؤمنين بل تسعى لعلاجهم بالعقاقير و المواد الكيماوية ، و من أهم رواد المدرسة التجريبية (وليام فونت William Wundt)¹ (1832-1920) صاحب كتاب (مبادئ علم نفس الشعوب - 1912) الذي أقام علم النفس الحديث ككيان علمي مستقل عن الفلسفة و ذلك بعد أن أسس أول معمل تجريبي لعلم النفس في العالم في جامعة ليبزج الألمانية و كان يرى أن علماء النفس يجب أن يدرسوا العمليات الأولية للشعور الإنساني ؛ الأفكار ، الإنفعالات ، الخيال ، الذاكرة ، بالإضافة إلى العمليات العقلية ؛ الإنتباه، النوايا و الأهداف و هذا كله عن طريق الملاحظة لذلك كانوا يحتاجون إلى آلاف الملاحظات ليخرجوا بنتيجة واحدة و سميت هذه الحركة لاحقا بالبنوية ، جاء ويليم جيمس (William James)² (1842-1910) عالم النفس الأمريكي و صاحب النظريات الكثيرة فيرى في كتابه (تنوع التجارب الدينية 1902) أن الشعور أو الوعي هو أساس تفسير الشعور الديني و يجعل المشاعر الدينية ذات علاقة بالمشاعر اليومية و هي عموما مشاعر موجهة نحو كائن أعظم من الإنسان يشكل بالنسبة له الملاذ و الخلاص، و لكنها على الأكيد مشاعر فردية تنبع من تجارب فردية و لا يمكن أن تستنتج عن طريق الملاحظة إلا أنه يمكن تعليمها للاستفادة منها في الحياة (التربية - التعليم - القانون - ..) لذلك تسمى حركته بالوظيفية ، لكن جاء (إدوارد فون هارتمان 1906-1842 Eduard Van Hartmann)³ الذي وضع نظرية مفادها أن في النفس البشرية مكانا سماه (اللاوعي المتخفي الفعال) و هو منبع الشعور الديني الذي يكون نتيجة إحساس الإنسان بالشقاء و الرغبة في السعادة ، أما ه.لوبا في كتابه (الدراسة النفسية للدين - 1912) فأكد أنه لا وجود لحاجات دينية محضة لدى الإنسان و أن صحة الدين ليست معتبرة إلا في حدود ما يبرهن الإنسان عن حاجته إليه ؛ أي إذا غابت الحاجة اندثر الدين بالإضافة إلى أن اليقينيّات الدينية ليست سوى

مظاهر للغرائز و الرغبات الباحثة عن الإشباع ، و هذا ملخص المدرسة التجريبية و نظرة روادها إلى ماهية الشعور الديني و منبعه في النفس البشرية ، وقد واجهت المدرسة التجريبية نقدا لاذعا من الدارسين لها يقول ميشال ميسلان في كتابه (علم الأديان) : " اعتقد علم النفس التجريبي أنه وُفق في إعادة الحياة الدينية لأسباب نفسية من نوع الشهوات و الرغبات و الحاجات و تجاهل الجانب الفكري و المفاهيمي الذي سيسجل حضوره الدائم في التجربة الدينية " ⁴ إضافة إلى التعميمات العمياء التي تقوم عليها هذه المدرسة على أساس وحدة النمط و التجربة التي لا توجد إلا في الدراسات الطبيعية التي تكون المادة هي محل دراساتها ، أما في الدراسات الإنسانية فالإنسان في تغير دام و ليس ذو نمط موحد و كذلك الطبيعة البشرية ليست ثابتة .

أما مدرسة التحليل النفسي فإنها استعانت بنتائج و نظريات المدرسة التجريبية فيما يخص العمليات العقلية و كیفياتها و تقسيماتهم للنفس البشرية و طرقها العلاجية التي ابتكروها و زادت عليها نظريات و تخريجات جديدة أهمها: ترى أن مصدر الشعور الديني داخلي و مخزن في اللاوعي (اللاشعور) و أصله هو (المكبوتات المخزنة في اللاشعور الفردي و الجمعي للإنسان) ، و أن النمط الثابت في الدراسات النفسية هو الآليات التي زُودت بها الطبيعة البشرية و منها (الدفاع - القمع - الكبت - النسيان - الأحلام ..) ، لذا فمنبع الدين في النفس البشرية يعود لتفسيرين : الأول أنه (مرض عُصايب و سواسي جماعي = وهم) ناتج عن صراعات و عُقد نفسية متعلقة بمخلفات نفسية لاشعورية تعود إلى زمن الطفولة المبكرة للفرد ، و الثاني أنه ناتج عن الخوف و الشعور بالضعف البشري و الحاجة إلى المنقذ (الحاجة الطفولية إلى الأب الأرضي و السماوي) ؛ و هم يقصدون طفولة الفرد و علاقته بأبيه المشاهدة و الموازية تماما لطفولة البشرية التي تمثلها القبائل البدائية في علاقتها برئيس القبيلة ثم (الطوطم) الذي أصبح الإله لاحقا ، لذلك ستكون دراستنا هذه عن تفسير (سيغموند فرويد)

للدين و الشعور الديني من وجهة نظر مدرسة التحليل النفسي، و سنحاول تحديد المكون الديني الذي استهدفته (نظرية التحليل النفسي) بالدراسة و التحليل ، معتمدين على الأسس و القواعد التي تقوم عليها هذه النظرية للوصول إلى ما وصلت إليه من نتائج ثم تحديد الآثار التي خلفتها هذه النظرية إلى الدين في الفترة المعاصرة ، ستكون الأسئلة كما يلي :

- من هو الطبيب سيغموند فرويد ؟ و ما هي مدرسة التحليل النفسي و قواعدها العلمية ؟
- كيف نظر سيغموند فرويد إلى منشأ الدين و منبعه؟ و كيف فسّر فرويد الشعور الديني ؟ و ما آثار تفسيراته على النظرة العامة إلى الدين في الفترة المعاصرة ؟
- ماهو النقد الذي وُجه لمدرسة التحليل النفسي بخصوص تفسيرها لنشأة الدين و منبعه ؟
- هل يمكن أن نقول أن سيغموند فرويد كان من المناهضين للدين ؟ و كيف ساهمت نظريته في نشر الإلحاد المعاصر و التبرير له ؟ .

1. سيغموند فرويد و منهج التحليل النفسي في علم النفس :

❖ **سيرة (سيغموند فرويد Sigmund Shalom Freud 1856-1939) :**

تؤخذ المعلومات الخاصة بحياة فرويد عموما من السيرة الذاتية التي كتبها أحد تلاميذه و هي (ERNEST Jones :The Life and Works of Sigmund Freud 1953/1957 - New York , Basic Books) ؛ هو الطبيب النمساوي من الأصل اليهودي (سيغموند شالوم فرويد) ، ولد لأسرة يهودية بتاريخ 6 ماي 1856 في فيينا -النمسا ثم انتقلوا إلى ألمانيا ، إختص بدراسة الطب العصبي يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي و أشهر علماء النفس المحدثين اشتهر بنظريات (العقل و اللاوعي) و

(آلية الدفاع عن القمع) ، كان هدفه الأسمى مساعدة الناس على تحطيم صدماتهم النفسية و العيش بسلام و كان ينتمي لتيار الإنسانيين ، انظم فرويد إلى كلية الطب في جامعة فيينا للدراسة تحت إشراف البروفيسور الدارويني (كارل كلاوس) ، كان أمل فرويد أن يصبح عالم تشريح و نشر العديد من البحوث في هذا المجال عمل كمختص في الأعصاب عام 1881 ، ثم أصبح صديق الطبيب النمساوي (جوزيف بروير) و أعجب بطريقته لعلاج الهستيريا و هي طريقة التفريغ (Cathartic Method) و هي طريقة يستخدم فيها الإيحاء التنويعي في معالجة مرضاه لتذكر أحداث لم يستطيعوا تذكرها في اللحظة مع المشاعر و الإنفعالات الخاصة بالحدث ذاتها مما يساعد المرضى على الشفاء عن طريق (التفيس من الكبت) و هي الطريقة التي أوحى له بأسلوب (التداعي الحر Free Association) في التحليل النفسي لعلاج المرضى عن طريق الحوار بين المريض و المحلل النفسي بدل التنويم المغناطيسي و قد كانت طريقته أكثر نجاحا و أمانا أيضا ، كما ابتكر ما يُعرف بحلقات العلاج النفسي و هو أول من اعتمد طريقة (جلسات العلاج النفسي) مع المرضى أين يستلقي المريض على كرسي مريح و يتكلم عما يريده و الطبيب يستمع و يسجل ، و التي على أساس الملاحظات حولها كَوّن فرويد نظريته في (الكبت و آلياته) التي كانت حجر الأساس في بناء التحليل النفسي ، ثم إنه إلتفت إلى تأكيد أن سبب الإضطرابات النفسية هو المشكلات الجنسية و اقتصر عليها ، و اقترح أن كبت الميول و الرغبات الجنسية يحولها عن طريقها الطبيعي إلى طريق غير طبيعي فتنشأ أعراض الهستيريا و استمر في أبحاثه حتى اقتنع أن أي إضطراب في الغريزة الجنسية هو علة أساسية لجميع الأمراض ، و ظل يعمل منفردا على نظرياته ضد المجتمع الطبي كله مدة عشر سنوات ، و لكن بعد سنة 1902 بدأ الوضع يتبدل حين التف حوله مجموعة من الاطباء الشباب المعجبين بنظرياته ، و في سنة 1908 تم عقد أول مؤتمر للتحليل النفسي في زيورخ بدعوة من (كارل أرنست

يونغ) ثم استصدر مجلة التحليل النفسي تحت إدارة فرويد و بلولر و كان يونغ رئيس تحريرها ، سنة 1909 دعت جامعة كلارك بالولايات المتحدة الأمريكية فرويد و يونغ لالقاء محاضرات بها عن التحليل النفسي ، سنة 1910 عقد المؤتمر الثاني في نورنبورغ و تم تأليف (جمعية التحليل النفسي الدولية) ، مع بداية القرن العشرين بدأت تظهر الكثير من العيوب في نظرياته و قد تم تجاوز الكثير منها أو تعديل بعضها على يد المحافظين الجدد و الفرويديين و لكن تبقى أساليب و أفكار فرويد مهمة في تاريخ علم النفس كما أن أفكاره لا تزال تؤثر في العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية إلى اليوم و قد لاقت نظرياته الجنسية خاصة إنتقادات كثيرة ممن جاؤوا بعده و خاصة بسبب إرجاعه كل الأمراض و الإضطرابات النفسية إلى العامل الجنسي وحده و تجاهله تأثير العامل الاجتماعي و العوامل الأخرى في التأثير على الشخصية السوية ، و رغم ذلك كان له الفضل في تطور علم النفس الحديث و مبادئه تستخدم كثيرا في العلاج النفسي اليوم ، توفي (سيغموند فرويد) بتاريخ 23 سبتمبر 1939 بسبب مرض السرطان ، بعد أن حاول الإنتحار مرات عديدة ، تاركا عائلة مكونة من زوجة و (6) أبناء اشتهرت منهم ابنته (آنا فرويد) كطبيبة أطفال في لندن .

مؤلفاته : المجموعة شبه الكاملة (مستقبل الوهم -قلق في الحضارة -موسى و التوحيد -فرويد و المسألة اليهودية) تأليف سيغموند فرويد ، ترجمة : جورج طرايشي ، نشر : دار مدارك للنشر ، ط1 (2015)، المجموعة شبه الكاملة (الطوطم و الطابو - علم نفس الجماهير -تأملات راهنة حول الحرب و الموت) تأليف سيغموند فرويد ، ترجمة جورج طرايشي ، نشر : دار مدارك للنشر ، ط1 (2015) .

❖ ماهية نظرية التحليل النفسي و قواعدها:

" موضوع دراساتها هو الشخصية (السوية و اللاسوية) مع التأكيد على قوانينها و محدداتها في مرحلة الطفولة المبكرة و الجوانب اللاشعورية و علاج السلوك غير السوي ،

تقول بالإستبطان أي بالكبت لرغبات و مشاعر غير مرغوب فيها من الخارج و إظهار ما يتوافق و قوانين هذا الخارج مما يخلق آثارا سيئة و بعيدة لهذا الكبت (صراع) ، و مهمة المعالج هي الكشف عن تلك المكبوتات و تحرير المريض منها بنقلها من اللاشعور إلى الشعور و التخلص من آثارها أو تخفيفها " ⁵ ، يرى فرويد أن الشخصية مكونة من ثلاثة أنظمة (الهو -الأنا -الأنا الأعلى) و على أساس العلاقة بين هذه العناصر تتكون الشخصية و سلوكياتها التي هي محصلة التفاعل بين هذه الأنظمة الثلاثة ؛ **الهو** (اللاشعور - النفس الغرائزية) التي لم يهدبها التعلم و الحضارة و تحتوي الغرائز الحيوانية الأصلية في الإنسان و التي تسعى للإشباع دون مراعاة قانون أو معايير و يحكمها (مبدأ اللذة) وحده لذا تتحكم فيه **الأنا** (الشعور -الوعي) و هي حالة الإنسان في أكثر حالاته إعتدالا و هو مرتبط بقيم المجتمع و قواعده يحكمه (مبدأ الواقع) و حتى في حالة إشباعه لبعض شهوات (الهو) فهو يليبها بطريقة متحضرة يتقبلها المجتمع مثل تلبية حاجة الجوع بطريقة مقبولة واقعيًا بأن لا يقبل مثلا أكل طعام نيء أو عفن ، و وفق طريقة معينة للأكل تراعي الذوق و الأدب العام ؛ فالأنا يعمل كوسيط و حكم بين **الهو** و **الأنا الأعلى** و هو يشرف على النشاط الإرادي للفرد لأنه يحاول الموازنة بين رغبات (الهو) و المعارضة المتوقعة من (الأنا الأعلى) و العالم الخارجي لهذه الرغبات غير المهدبة ، أما **الأنا الأعلى** (الضمير) فهو شخصية المرء في أكثر حالاته تحفظا و عقلانية حيث لا تحكمه سوى قيم المجتمع و مبادئه و أخلاقه و هو يتكون من كل ما يتعلمه المرء من محيطه (البيت ، المدرسة ، المجتمع) ، و هذه الأنظمة الثلاثة ليست مستقلة عن بعضها البعض في الواقع ؛ فالهو هو الجانب البيولوجي الغرائزي للفرد و الأنا هو الجانب السيكلولوجي أما الأنا الأعلى فهو الجانب السوسيولوجي الأخلاقي ، و حين تتضارب هذه الجوانب و تتصارع يخلق الإضطراب النفسي من وجهة نظر فرويد و الأنا هو الذي يصنع التوازن بين **الهو** و **الأنا الأعلى** فإن عجز عن خلق التوازن بينهما يولد الإضطراب (العُصاب

(Neurose)⁶ الذي هو اضطراب يتضمن صراعا خفيا في النفس بين الهو و الأنا الأعلى يستهدف استبعاد دافع غريزي ، فإن نجاح الأنا في حسم الصراع لصالح الأنا الأعلى يكون الشخص مقبولا مجتمعا لكن رغباته لا تموت بل تُكبت بالقمع و تتخفى في اللاشعور لتعود في وقت آخر إلى السطح في شكل بشع (اضطراب و مرض نفسي) قد تكشفه في شكل مرمز في الأحلام أو ملكة الإبداع ، كما أن الإنسان يمر في نموه النفسي و العاطفي بمراحل معينة هي التي تحدد سلوكه في مرحلة الرشد و أهم هذه المراحل التي أولها (سيغموند فرويد) إهتماما كبيرا فترة الطفولة المبكرة (3-14 سنة) و أهم عقدة فيها هي ما سماه (عقدة أوديب) و هي عقدة كره الأب و قتله أو تمنى موته و إختفائه ليتمكن الطفل من الإستئثار بحب أمه وحده و لكن الشعور بتأنيب الضمير خلق صراعا داخليا ولّد هذه العقدة التي نشأت بسببها فكرة (تمجيد الأب) ، و التي تقابلها فكرة تمجيد رمز الأب في القبيلة (الطوطم) ثم عبادته بتحويله إلى إله خاص بالقبيلة ، العبادة التي تطورت لاحقا لتنتج لنا أديان الآلهة المتعددة أو الإله الواحد الذي ليس إلا (الأب السماوي) — و هذا ما سنشرحه لاحقا - .

2. أساسات منهج التحليل النفسي مطبقا على موضوع (الدين) :

❖ نظرية فرويد حول نشأة الدين:

نظر علماء النفس خلال القرن 19م إلى الدين على أنه (مرض نفسي أو عقلي) رغم أن كلا منهم كانت له نظريته حول مصدره ، و قد ركزوا على جانب الشعور الديني (العاطفة الدينية) و رأوا أن التدين شعور و عاطفة تربط الإنسان بشيء متعال متفوق لأسباب معينة تشرحها و تحكيها الأسطورة التي تجعل التدين معقولا و مبررا لدى معتنقيه ، كما أن هذا الشعور سيترسخ بالتكرار و الممارسة كل فترة و بشكل جماعي في الطقوس ، الأمر الذي سيخلق الإيمان العميق الذي لا يتزعزع ، و قد كان غرض علماء النفس من هذا التفسير هو إثبات أن الشعور الديني (مرض نفسي) تسهل تنحيته و

تخليص الإنسان منه ؛ لأن الإنسان سيحصل بالعلم و المعرفة العقلية على تفسيرات منطقية لمشاعره و ممارساته الدينية المتوارثة و هذا ينطبق على جميع الأديان و هذا الفرع من علم النفس يسمى علم نفس الدين أو سيكولوجيا الأديان (Religions Psychology) التي هي : " علم نفس الدين هو فرع من فروع علم النفس يتطرق إلى دراسة الدين دراسة علمية بمنظار علم النفس ؛ أي أنه يسعى إلى استخدام قواعد علم النفس الناجمة عن الدراسة العامة للسلوك البشري في دراسة السلوك الديني قصد تفسيره ، أما مسأله فهي : ماهو مصدر الدين ؟ هل للأشخاص المتدينين شخصية خاصة ؟ هل يبعث الدين على المزيد من الرضى عن الحياة لدى الأفراد ؟ و هل يضمن لهم نجاحا أكبر في الحياة ؟ و هل يتمتع المتدينون بصحة نفسية و جسدية أكبر ؟ و غير ذلك من الأسئلة " ⁷ ، أي أنه يدرس الدين بشكل رئيسي على أساس أنه (ظاهرة نفسانية) و تتم الدراسة بواسطة إتجاهات مختلفة ⁸ ؛ التحليل النفسي أو السلوكية الجديدة أو المعرفية أو الأنسانية و هي وجهات النظر الأربعة المعروفة اليوم في علم النفس المعاصر ، و قد عمل (سيغموند فرويد) في هذا المضمار شارحا وجهة نظره و مبررا لها و مدافعا عنها في ثلاثة مؤلفات أساسية (الطوطم و الطابو -1914) و (مستقبل الوهم -1927) ليختم وجهة نظره بكتابه (موسى و التوحيد-1939) و التي كانت إسهامات ضخمة في حقل سيكولوجيا الأديان ، وقد كان غرض فرويد من بحوثه السايكولوجية لموضوعات الدين و الحضارة حسب ما ذكر هو عن نفسه في كتابه (قلق في الحضارة) ، و كما أشار إلى ذلك (دانيال بالز) صاحب كتاب (النظريات الثمانية في الدين) ؛ هو سعادة البشرية و تخليص الإنسانية من المآزق المؤلم الذي ألمّ بها خاصة بين الحربين العالميتين فقد كان فرويد من رواد التيار الإنساني الذي ازدهر خلال القرن 19م ، يقول خزعل الماجدي : " لعل الغاية الكبرى لفرويد من بحوثه السايكولوجية هي إنشاء ما يسميه (النظرة العالمية) ليهدي بها البشر و يعالجهم و يصنع لهم إمكانية أفضل للتعايش بينهم و

بين وجودهم الموحش في هذا الكون من جهة ، و فيما بينهم كشعوب و جماعات من جهة أخرى و لتحقيق سعادة الجميع " ⁹ ، أي أنه كان يرمي فيما يرمي إليه إلى إنشاء فكرة للسلام العالمي و للتعایش السلمي المشترك بين البشر بعد أن يتكرر نظرية جديدة عن (طبيعة الإنسان) التي يشترك فيها الجميع ، خاصة أن الفترة التي عاش فيها كانت فترة الحروب العالمية التي عانت من جرائمها الشعوب الأُمريين، أما غرضه القريب فهو وضع نظرية لتفسير نشأة الدين على غرار علماء عصره و قد بنى نظريته على نتائج دراسات من سبقوه و عاصروه من العلماء الإثنوغرافيين و المؤرخين الدينيين الذين عاصروهم ، فكانت البداية بنظريات نشأة الدين في المجتمعات البدائية التي أشار فيها إلى التشابه بين نشأة و تطور المجتمعات البدائية و بين نشأة و تطور الفرد النفسية و العقلية و يعتبر كتابه (الطوطم و التابو-1914) أساس نظريته في نشأة الدين في المجتمعات البدائية فمن خلاله حاول تفسير سر الطوطم و التابوهات المرتبطة به بالتحليل النفسي ، و قد اعتمد فيه -حسب قوله¹⁰- على كتابات السير (جيمس فريزر): (الطوطمية و الزواج الخارجي -1910) ثم (العصن الذهبي The Golden Bough) ؛ أين رأى فرويد أن يُرجع نشأة (الطوطم) إلى (أسطورة قتل الأب) الموجودة في الطفولة المبكرة للقبيلة و للبشرية كافة ؛ و هي الأسطورة المفسرة ل (عقدة أوديب) من جهة، و إلى مشاعر الخوف و الحاجة إلى الحامي و المنقذ المحب من جهة أخرى (الحاجة الطفولية إلى الأب) فهذا الصراع الداخلي بين الحاجة إلى الأب و الرغبة في التخلص منه وُلد ما يسمى (عقدة أوديب) و التي يرجع إليها فرويد كل ما يتعلق بالإنسان وحياته و خاصة التدين أو الشعور الديني الذي يرى أنه (وهم) قائم على رغبات الإنسان الداخلية التي تعود إلى طفولته المبكرة و رغبته في الحصول على (أب حام و محب) و بما أنه قتل الأب الأرضي فإنه استعاض عنه بالأب السماوي ، أي أن تفسير فرويد للإيمان بوجود الإله (الدين) قائم على الشعور بالخوف و الضعف و الحاجة إلى كائن أقوى من الإنسان لحمايته و رعايته

و هذه حاجة طفولية يليبها الأب في العادة ،هذا عن الجانب الفردي الذي سماه (العُصاب الفردي الإنحصاري)، أما من الجانب الجمعي فيرى أن الدين هو (عُصاب وسواسي جماعي) أي أنه مرض انتقل من الأفراد إلى الجماعة بالوراثة-فرويد من المؤمنين بنظريات الوراثة و التطور - ليصبح الأب هو الإله ذاته الذي كان يرمز إليه سابقا (الطوطم)¹¹ ؛ فكما يليب الأول(الأب) حاجات الطفل (الابن) النفسية يليب الثاني (الإله) الحاجات الشعورية و العاطفية للجماعة المؤمنة و التابعين له (أبناء الله) ، يقول فرويد معضدا هذه الفكرة في كتابه (الطوطم و التابو)¹²: "إننا نختدي في عقدة أوديب إلى بدايات الدين و الأخلاق و الفن معا ، و هذا بالتوافق التام مع معطيات التحليل النفسي الذي يرى في هذه العقدة نواة الأعصبة كافة و ذلك بقدر ما تتيح لنا أن ننفذ إلى طبيعتها فليس من المدهش أن تكون حتى هذه المشكلات المتعلقة بالحياة النفسية للشعوب قابلة للحل انطلاقا من نقطة واحدة و هي الموقف إزاء الأب ؟ " ، فالطوطم و التابو¹³ هما أصل كل الأديان و أصل الحضارة في المجتمعات البشرية بالنسبة لفرويد ، لنجد (دانيال بالز) صاحب كتاب (النظريات الثمانية للأديان) يشرح هذا الطرح الفرويدي يقول:"على مستوى النشاط الواعي يرى أفراد القبيلة في القران الطوطمي صورة أبيهم الميت و يسقطون عليه مكانة إلهية و يعترفون له أنهم جميعا أطفال و يقدمون له طقوس ولائهم و عبادتهم بأكل لحم الطوطم و بقهر و تقييد رغباتهم الجنسية ، أما على المستوى الأعظم للشعور فإنهم يعبرون عن مشاعر عكسية تماما فالطقس بطبيعته يعيد خلق فعلتهم الأصلية من تمرد و قتل و أكل للحم البشري ، و بذا يطلقون الشعور بالإحباط و الكراهية المنبعث من إنكارهم المستمر لرغباتهم الأوديبية"¹⁴ ثم استمر في بناء لبنات نظريته بخصوص الشعور الديني و منبعه في كتابه (مستقبل الوهم) ؛ بينما نظر في خبايا الماضي السحيق للبشرية ليستخرج منها الأسباب الأولى لنشأة الدين من خلال (الطوطم و التابو) فإنه في (مستقبل الوهم) ركز على الدوافع الظاهرة

و المعلومة للدين و التدين ، و قد أكد فيه بعد البحث و الإستقصاء أن الدين ليس إلا مرضا نفسيا يسمى (الوهم) و الذي كان قد تشكل في طفولة البشرية المبكرة في شكل ديانات بدائية و استمر في النمو و التطور حتى وصل إلى صورته الأكثر تعقيدا المعروفة اليوم التي تمثلها اليهودية و المسيحية ، وقد كان أصل هذا المرض ما يسميه (عقدة قتل الأب) أو (عقدة أوديب)، و هي عقدة تنشئ من صراع بين مشاعر متناقضة و متصارعة تجاه الأب ؛ الأب الذي كان هو الملاذ و المخلص و الحامي العطوف أحيانا ، و في أحيان أخرى كان هو المتسلط المتجبر المؤذي الذي في سبيل الحفاظ على سلطته و مكانته يمنع الآخرين من تحقيق رغباتهم و إرضاء غرائزهم و شهواتهم فيقون متألين و غير سعداء ، و بين هذين الشعورين تخلق العقد و الأوهام في نفسية الفرد و هو طفل ، و تقابلها تماما العقد و الأوهام في الجماعة التي يترأسها أب جائرا أيضا ، و بالتالي فقد صنف (سيغموند فرويد) المعتقدات الدينية ضمن (الأوهام) أي أنه يعتبرها مجرد تصورات و أحلام و تمنيات و رغبات مكبوتة ، يمكن أن تتحقق و يمكن أن لا تتحقق ، و ما يميز الأوهام أنها مستمدة من رغبات الإنسان غير المتحققة إما لصعوبة تحقيقها في ذاتها أو لسبب الظروف المحيطة بالإنسان يقول فرويد في كتابه (مستقبل الوهم)¹⁵ فيؤدي هذا الكبت غالبا إلى خلق العقد و الأمراض يقول مفسرا: " إننا حين نوجه أنظارنا نحو المنشأ النفسي للتصورات الدينية نجد أن هذه التصورات التي تطرح نفسها على أنها عقائد راسخة ليست خلاصة التجربة أو نتيجة نهائية للتأمل و التفكير ، و إنما هي توهمات ، هي تحقيق لأقدم رغبات البشرية و أقواها و أشدها إلحاحا، و سر قوتها هي قوة هذه الرغبات ، و بالأصل نحن نعلم ذلك ؛ فالشعور بالخوف المرتبط بالضائقة الطفولية هو ما كان أيقظ الحاجة إلى الحماية و هي الحاجة التي لبها الأب ، و إدراك الإنسان أن هذه الضائقة تدوم الحياة كلها هو ما جعله يتشبث بوجود أب أعظم قوة و أشد بأسا هذه المرة ، فالقلق الإنساني إزاء أخطار الحياة يسكن و يهدأ لدى التفكير

بالسلطان الرفيق و العطوف للعناية الإلهية ، كما أن تأسيس نظام أخلاقي للكون من شأنه أن يكفل تلبية مقتضيات العدالة فيه ، و هي المقتضيات التي لبثت في غالب الأحيان غير متحققة في الحضارات الإنسانية .. ومن مقدمات المنظومة الدينية تشتق و تنفرع أجوبة عن الأسئلة التي يطرحها الفضول البشري على نفسه بصدد الألغاز التالية : أصل الكون ، العلاقة بين الجسد و الروح و غيرها ، و لكم يخف العبء على النفس الفردية حين ترى صراعات الطفولة المنبثقة عن العقدة الأبوية و قد أسقطت عن كاهلها -إذا صح التعبير- و تلقت لها حلا يقبل به الجميع و هذا الحل هو (الدين) " ، فالدين عند فرويد هو العزاءات من مشاعر الخوف و الألم التي يعيشها الإنسان في هذا الكون كما أنه مخزن كل الأجوبة الكونية التي تعطي معنى لحياة الإنسان -و لو بشكل سخيّف و بدائي- كما أنه يمثل مجموعة القواعد و الأوامر و النواهي الأخلاقية التي يضمن اتباعها و الإنصياع لها النجاة من بطش الأب و عدم الإستبعاد من الجماعة في مقابل نيل محبته و حمايته و العيش في الجماعة و الإنتماء لها و هذا بمثابة عقد إجتماعي ينعقد بين الفرد و الجماعة و إلهها ؛ التخلي عن الرغبات الغرائزية و كتبها في مقابل الإنضمام للجماعة و نيل الحماية من الأب السماوي .

و قد توسع فرويد في شرح نظريته عن أهمية الدين في إنشاء الحضارات السابقة و بنائها في كتابه (قلق في الحضارة -1930) الذي برر فيه استمرار البشرية في الإعتقاد في (تصوراتها الدينية) و تمسكها بها رغم بلوغها مبلغا من التقدم و التحضر العقلي و النضوج النفسي ؛ إذ يرى أن (النظام الأخلاقي) الذي أسسه الدين للجماعات البشرية هو الذي ضمن ولادة الحضارات لأنه كان بمثابة عقد إجتماعي تم بين أفراد القبيلة قديما و استمر و تطور مع الزمن في اللاوعي الجمعي ليصبح نظاما و دستورا يحكم الحضارة ذاتها و يضمن قيامها ¹⁶ ؛ إذ لم توجد حضارة قط إلا و كان الدين أهم مكوناتها بل كان هو مكوناتها الأساسي بما يوفره لها من رؤية متكاملة لله و الإنسان و

العالم و العلاقة بين هذه العناصر الثلاثة ، و دليله على ذلك أن ذات التحريمات التي تمت بين أفراد القبيلة سابقا و شكلت (التابو) هي ذاتها الأوامر و النواهي أو القوانين التي استمرت في الحضارات الحديثة ، و كما كان انتهاكها سببا للموت و الشرور سابقا فإن انتهاكها اليوم حتما سيكون مؤذنا بسقوط الحضارة و اندثارها مهما كان تقدمها العلمي و التقني و المادي ، و هي تحريمات (القتل -زنا المحارم- أكل لحم البشر) ، و هذا النظام الأخلاقي كبح جماح الإنسان و علمه حدوده و جعله يسيطر على جانبه الحيواني المعتدي(الهو البيولوجي) لصالح الجانب المتحضر الراقى(الأنا الأعلى السوسيولوجي) فتكونت على إثر ذلك الحضارات ، كما أن وجود الكثير من هؤلاء الذين يسيطر عليهم (الأنا الأعلى) سيضمن غالبا نهوض حضارات راقية دون الحاجة إلى قوى الردع و مؤسسات العقاب التي كانت تحتاجها الدولة سابقا .

ليستمر في شرح المقصود بالأوهام سايكولوجيا و ذلك بالمقارنة بين الوهم و الخطأ ، يرى أن أول خاصية للوهم أنه نابع من رغبات إنسانية داخلية مكبوتة في الغالب يقول : " نسمي الوهم كل اعتقاد تكون الغلبة في حوافزه و معلاته لتحقيق رغبة من الرغبات و نحن لا نقيم اعتبارا في ذلك لعلاقات هذا الاعتقاد بالواقع تماما كما أن التوهم عينه يعزف عن السعي إلى أن يجد في الواقع توكيدا له " ¹⁷ ، أي أن الوهم لا يحتاج إلى إثباتات تؤكد مصداقيته من الواقع و هذا ينطبق على المعتقدات الدينية فهو يؤمن تماما أن التصورات الدينية لا يمكن البرهنة عليها من الواقع لا من التجربة و لا من التأمل و لا التفكير لذا فهي محض أوهام لا دليل ملموسا عليها إلا أنها منغوسة في القلوب و العقول لذلك فهو يرى ضرورة التخلص منها قائلا في ذات الصفحة : " إن العقائد جميعها أوهام ، لا سبيل إلى إقامة البرهان عليها و لا يمكن أن يرغم أي إنسان على أن يعدها صحيحة ، و على أن يؤمن بها و بعض هذه الأوهام بعيدة الاحتمال و صعبة

التصديق للغاية و متناقضة أشد التناقض مع كل ما تعلمناه ببالغ المشقة عن واقع العالم و الكون إلى درجة نستطيع معها أن نشبهها بالأفكار الهذائية " .

جملة قوله في التصورات و المعتقدات الدينية عبر عنها في نهاية شرحه لماهية (التصورات الدينية) من وجهة النظر السيكلوجية في كتابه (مستقبل الوهم)¹⁸ يقول : " إن اتخاذ موقف موجب أو سالب من مدى صحة المعتقدات الدينية لا يدخل في نطاق هذه الدراسة ، حسبنا أننا نعرفناها في طبيعتها السيكلوجية بصفتها محض أوهام .. إننا نعرف على وجه التقريب في أي عصر و عن أي ضرب من الناس تولدت المعتقدات الدينية ، و إذا علمنا أيضا الدافع الكامن وراء ظهورها يكون قد طرأ تبدل مرموق على الوجهة التي يجب أن يُنظر منها إلى المشكلة الدينية و لسوف نقول إنه من الجميل أن يكون هناك إله فاطر للكون و عناية إلهية رؤوفة و نظام أخلاقي للعالم و حياة ثانية أيضا ، لكن من المثير للفضول فعلا أن يكون هذا كله هو بالتحديد ما يمكننا أن نتمناه لأنفسنا و الأغرب من ذلك أن يكون أسلافنا ،الذين كانوا يئنون تحت نير البؤس و الجهل و العبودية ، هم بالضبط من أمكن لهم التوصل إلى حل جميع ألغاز الكون العويصة تلك " ، من السهل استنتاج ما يرمي إليه (فرويد) من هذه الفقرة إذ يصرح أن الدين ليس إلا ابتكارا بشريا نفسيا -في جانبه العقائدي الأولي - ثم تطور إلى نظام للحكم و التحكيم و ربط الجماعة البشرية -في جانبه القوانين و الأخلاقي - لكنه أصبح أكثر ارتباطا بالخيال و الرغبات المكبوتة التي لم يمكن لها التحقق في الواقع المعاش فكانت تلك الرغبات متحققة في الحياة الثانية ، فقد ابتدعه الآباء الذين كانوا يعانون العبودية و الجهل بأن نقلوا مخيلاتهم إلى عالم آخر مختلف عن العالم الذي يعيشون فيه و أقنعوا أنفسهم بوجوده ليخففوا وطأة الحياة و مأساويتها عنهم بابتداع (أب سماوي) ذو صفات كانوا يتمنونها في آبائهم الأرضيين و في حكامهم ؛ رؤوف رحيم عطوف حامي و منقذ ، و نظام أخلاقي أساسه العدل بين جميع البشر ليعبروا به عن رفضهم للنظام

الجائر القائم الذي يريزون تحت وطأته ليمنوا أنفسهم بحياة ثانية يعيشون فيها رغباتهم المكبوتة و التي استحال عليهم تحقيقها في واقعهم الحالي ، و بهذا اكتملت بنية (الدين) لدى سيغموند فرويد الذي لم ير فيه إلا (وهما) من صنع نفوس مقهورة مضطهدة أقنعوا به أنفسهم و أجيالا من البشر بعدهم حتى وصل إلينا اليوم في صورته المعروفة لدينا (الأديان المعروفة اليوم و خاصة اليهودية و المسيحية) .

و هذا التفسير يشبه إلى حد بعيد تفسير الماركسية للدين و الذي يمكن اختصاره في مقولة كارل ماركس (الدين أفيون الشعوب و روح العالم الذي لا روح له) ؛ إذ يعزوا فرويد استمرار الشعور الديني في المجتمعات المعاصرة إلى استمرار الشعور ب(الضائقة الطفلية) في البشر، يقول مجددا في (مستقبل الوهم) : " لكن ضائقة بني البشر تبقى كما هي و يبقى معها الحنين إلى الأب و الآلهة ، و تحتفظ الآلهة بمهمتها المثلثة التي من المفترض أن تقوم بها : تعزيم قوى الطبيعة أي طرد الأرواح الشريرة منها ، و مصالحتها مع قسوة الأقدار خاصة الموت، و أخيرا تعويضنا عن الآلام التي تفرضها الحياة المتمدنة المشتركة على الإنسان " ¹⁹ ، كما أنه كان يرى أن لا مستقبل للدين في القادم من الأيام فقد كان من منظري مقولة (موت الإله) و من منظري (الإلحاد المعاصر) أيضا ؛ رأى فرويد أن الدين كان في الماضي سببا لبناء المجتمعات و الحضارات بما وقّره من نظام أخلاقي و اجتماعي لضمان الترابط بين البشر و دوام تبادل المنافع و اقتسام الموارد بينهم ، لكن اليوم بعد كشف زيفه و كونه مرضا و وهما فيمكن الإستغناء عنه و استبدال قوانينه بالقوانين الوضعية لتنظيم المجتمع و بناء نوع جديد من الحضارة المعتمدة على العلم و التقنية و الإنسان وحده بعيدا عن الغيب و الآلهة .

و قد ختم وجهة نظره في الدين بمحاولة تطبيق نظرياته السابقة على الديانات السماوية (اليهودية و المسيحية فقط فهو لم يتكلم عن الإسلام) ليثبت أن نظرياته لا تنطبق فقط على الأديان البدائية بل على أديان التوحيد أيضا و التي حاول إيجاد بذرة (عقدة

أوديب) و (أسطورة قتل الأب) البدائية فيها باحثا عن تلك النماذج البدائية في اليهودية و ذلك بتحليله لشخصية (النبي موسى) و علاقته بالديانة اليهودية و بقومه بني إسرائيل و بكل القبائل السامية في كتابه (موسى و التوحيد -1939) ؛ أين رأى أن النبي موسى هو (الأمير المصري مبتدع ديانة الإله الواحد (آتون) ، و بعد أن جاء بها حاول إلزام القبائل السامية بها و جعلها شعب (آتون) المفضل و عقد عهدا بينهما هو(الختان) ، و بعد عدة تمردات ضده (عبادة العجل -تخطيم ألواح الشريعة) قتلوه ليصبح هو (الأب المقتول) و تتكرر مجددا قصة نشأة الأديان : أب مقتول و شعور قوي بالذنب يؤدي إلى التمجيد ثم العبادة و الإلتباع ، لذلك ففرويد يعتبر اليهودية ديانة موسى لا ديانة الله و (يهوه) ليس إلا النبي موسى ذاته و الأنبياء بعده لم يمشروا إلا بديانة (آتون) ذاتها كمحاولات للتكفير عن ذنب قتله ، رغم كل ما في هذه القصة من التجني على الحقائق التاريخية المثبتة في المصادر التاريخية و الدينية يبقى هذا تفسير فرويد لنشأة الديانة اليهودية وفق عقدة أوديب التي هي منبع كل شيء في حياة الإنسان ، يقول فرويد في ذلك : " إذا كان موسى قد وهب اليهود -لا ديانة جديدة فحسب -بل شريعة الختان أيضا فهذا لأنه كان مصرياً و لم يكن يهودياً ، الأمر الذي يترتب عليه أن الدين الموسوي كان على الأرجح ديانة مصرية لا ديانة الشعب العظيم ، ديانة (آتون) التي تتفق معها الديانة اليهودية اللاحقة في بعض النقاط الهامة " ²⁰ ، أي أن فرويد أنكر مصداقية ديانته الشخصية في سبيل إثبات نظريته حول نشأة الأديان و ارتباطها ببعضها البعض .

و ذات التفسير أرجع إليه نشأة الديانة المسيحية على يد (بولس) الطرسوسي اليهودي الروماني أين يقول في ذات المصدر : " لقد قام فرد من أفراد الشعب اليهودي عقب انخيازه إلى جانب محرض سياسي - ديني (يقصد المسيح)، قام بتأسيس ديانة جديدة هي الديانة المسيحية التي انفصلت عن الديانة اليهودية ..فقد أرجع ذلك الشعور بالذنب

إلى منبعه التاريخي البدائي مطلقا عليه اسم (الخطيئة الأصلية) ؛ تلك الجريمة التي اقترفت بحق الذات الإلهية و التي لا سبيل إلى التكفير عنها إلا بالموت و الموت وحده ، و مع الخطيئة الأصلية دخل الموت إلى العالم و الواقع ، إن تلك الجريمة التي تستتبع الموت هي جريمة (قتل الأب البدائي) الذي جرى تأليهه فيما بعد ، بيد أن جريمة القتل هذه لم يأت على ذكرها و إنما استغني عنها بأخيولة (التكفير عنها = الفداء) .. فابن الله البريء من كل خطيئة ضحّى بنفسه و أخذ على عاتقه وزر الجميع و لقد كان من المفروض حقا أن يكون (ابنا) لأن ضحية الجريمة كان (أبا) " ²¹ ، ثم إنه يعتبر (الوليمة = العشاء المقدس) الطقس المسيحي الذي يُسمى (تناول القربان المقدس) - الذي يتمثل المؤمن عن طريقه جسد (الفادي) و دمه - استرجاعا نفسيا لحدث قديم متجذر في النفس البشرية و هو عودة طوطمية إلى رغبات الطفولة الأولى ، يقول موضحا : " إن الإحتفال المسيحي الطقسي بتناول القربان المقدس ما هو إلا تكرار للوليمة الطوطمية القديمة و لكن بعد فقدانها كل طابع عدواني و إحاطتها بالحبّة و التقوى " ²² و يقصد هنا الوليمة التي قام بها الأبناء بعد قتلهم لأبيهم بأن أكلوا جسده و شربوا دمه لينتقموا و يتخلصوا منه و ليشارك الجميع في هذه الجريمة النكراء و ليحمل الجميع وزرها ، لكنها في المسيحية أصبحت أقل عدوانية إذ أصبح تمثل جسد المسيح و دمه في العشاء المقدس يهدف إلى المشاركة في الطبيعة الإلهية و ليحل المسيح في أجسادهم فيخلصهم و يسمو بهم .

❖ نقد نظرية فرويد حول نشأة الدين:

أول من انتقد نظريات فرويد هو فرويد نفسه إذ كان يشير في مقدمات بحوثه أو خواتيمها إلى الأمور التي هو متيقن منها تماما في نظرياته و كذا إلى الأمور التي يرى أنها محل أخذ و رد ، يقول في نهاية بحثه (الطوطم و التابو) ²³ : " برغم توافق الإستنتاجات التي أسلمتنا إليها أبحاثنا لا نخفي البتة جميع وجوه عدم اليقين المباشرة لفروضنا و جميع الصعاب التي تصطدم بها نتائجنا ... من المرجح أنه لم يغيب عن ذهن أحد أننا

نصادر على وجود (نفس جماعية) تجري فيها السيرورات عينها التي تدور في (النفس الفردية) .. و نفترض أن سيرورة وجدانية بعينها من طبيعة ما ، أمكن لها أن ترى النور لدى جيل الأبناء كان الأب أساء معاملتهم ... أما الإعتراض الآخر فيصدر عن المنهج التحليلي النفسي بالذات و مقدماته .. " .

ما يمكن الحديث عنه بخصوص نقد نظرية التحليل النفسي لفرويد كلها و كذا بخصوص (منبع منشأ الدين) هو اعتماده على الأساطير و القصص الخيالية و الأحلام و الهوامات لإنتاج النظريات العلمية و تطبيقها على الواقع المعاش ، كما أنه يساوي بين ما يمكن أن يُطبق على مرضى نفسيين (أشخاص غير أسوياء) و ما يطبق على أرقى ما عرفته البشرية (الدين و الفن و الحضارة) ، بالإضافة إلى اعتماده على روايات تاريخية غير متفق عليها بين العلماء الإثنوغرافيين أو القيام بتعميم نتائج دراسة معينة و محددة على العالم أجمع (روايات فريزر و تايلور ..) و كأنها مسلمات و حقائق متفق عليها و هذا يعني ضعف و وهن منهجه العلمي ، و قد تعرضت نظرية فرويد للنقد و المراجعة من تلاميذه في مدرسة التحليل النفسي ذاتها و كذا من المدارس النفسية الأخرى و أولهم (كارل يونغ) و (إدلر) و خاصة في رؤيته للدين التي اعتبروها نظرة ناقصة و مختزلة جدا لماهية الدين و أهميته و دوره في الحياة البشرية ؛ فهذا (كارل يونغ) في كتابه (علم النفس و الدين-1938) يعتبر الدين ضرورة لازمة و ملازمة للوجود البشري و لا يمكن تخيل وجود بشري دون دين يقول : " إن الدين متأصل في الحياة الإنسانية و لا يمكن أن يُختزل إلى (مركب و عقدة أبوية) يجب حلها لكي يسترد المرء عافيته النفسية، و لا إلى عوامل متعلقة بتطور العلاقات الإقتصادية و الوعي الإجتماعي ، غير أن الأمر لا يقتصر على ذلك فحسب فإن همّ الباحثين في فينومينولوجيا الدين ينحصر في توصيف الصور، الرموز، الأساطير و التأويل و معنى الخبرة الدينية "²⁴ ، كما أن فرويد نظر إلى الإنسان كحيوان غريزي معتد و ذو فردانية سلبية عالية فاعتبره (غير إجتماعي بطبعه) و أنه يميل إلى الآخرين بقدر

حاجته إليهم في إرضاء رغباته و تلبيتها ، لذا يجب كبح جماحه بالقوانين الرادعة و العقوبات الصارمة لترويض الجانب الغرائزي فيه (الهو) و تعزيز (الأنا الأعلى) لديه كسلطة داخلية خاضعة تماما للسلطات الخارجية و الإكراه الخارجي ليصبح الإنسان كائنا أخلاقيا و إجتماعيا ، ثم تعزيز علاقاته الإجتماعية و ربطه بالآخرين قسرا و ذلك بالتربية و التعليم و العمل.

أراد أيضا عالم النفس المعاصر الأمريكي (إيريك فروم) في كتابه (الدين و التحليل النفسي) توضيح بعض اللبس فيما يخص رؤية التحليل النفسي للدين عموما و خاصة رؤية سيغموند فرويد الذي يعتبره الكثيرون (ضد الدين) لكنه كان من المدافعين عنه نوعا ما يقول : " الدين في رأي فرويد هو تكرار لتجربة الطفل ، و يتعامل الإنسان مع القوة المهددة له بنفس الطريقة التي تعلم بها و هو طفل أن يتعامل مع عدم شعوره بالأمان و ذلك بالاعتماد على والد يعجب به و يخافه " ²⁵ ، فالشعور الأول لدى الطفل يسمى (عُصاب الإنحصار) و الشعور الثاني الذي يسميه (عُصاب جماعي) هو الدين ذاته و هما عُصابان تسببهما ذات الظروف و المشاعر ، و بما أن التصور الألهي أثبت لواقعيته و بأنه (وهم) فإن فرويد يعتبره خطرا ²⁶ مبينا الأسباب التي دفعت فرويد لهذا الاعتقاد يقول : " لأنه (الدين) يميل إلى تقديس مؤسسات إنسانية سيئة تحالف معها على مر التاريخ ، إضافة إلى ما يقوم به من تعليم الناس الاعتقاد في الوهم و تحريم التفكير النقدي مما يجعله مسؤولا عما أصاب العقل من إملاق ؛ إذ يعتبر الطفل أكثر ذكاء من البالغ بسبب هذا الحجر على العقل الذي ينشأ عليه الفرد فيفقد ذكاءه و قدرته النقدية مع مرور الوقت ، أما الاعتراض الثالث لفرويد على الدين هو وضعه الأخلاق على أسس مهزوزة حسب رأيه - : فإذا كانت صحة المعايير الأخلاقية تستند على كونها أوامر الله فإن مستقبل الأخلاق ينهض أو يتداعى مع الاعتقاد في الله ، و بما أن الاعتقاد الديني في سبيله إلى الإنحلال فإنه مُرغم على افتراض أن الارتباط المستمر

بين الدين و الأخلاق سوف يؤدي إلى تحطيم قيمنا الأخلاقية أيضا " ، أي أن فرويد رأى في الدين سلطة أبوية خطيرة على عناصر ثلاثة يعدها ضرورية ليعيش الإنسان حياة طبيعية و يستخدم قدراته الكامنة و يؤدي دوره في الكون بكل حرية و هي : العقل و الأخلاق و ضرورة تخفيف العذاب الإنساني ؛ فإن توقف الإنسان عن كونه طفلا معتمدا على سلطة يحبها و يهابها و تعلم مواجهة الواقع دون الإعتماد على شيء غير قواه الخاصة فإنه سيستطيع استخدام عقله و ادراك مكانته في الكون و العيش فيه دون خوف و هنا فقط ستتحقق إنسانيته الكاملة ، فاعتقادات فرويد هذه و انتقاداته ليست إلا انعكاسا للبيئة التي عاش فيها خلال القرن التاسع عشر فقد اعتبرت المؤسسات الدينية (اليهودية و المسيحية) مجحفة في حق الإنسان مما دعى بالإنسان الغربي إلى الثورة عليها و محاولة التخلص من سيطرتها و حجرها على العقول و الأقدار ، و لكن تعميم هذه النظرية على الأديان كلها و اعتبارها جميعا (أوهام) فهذا ليس من العلمية إذ اعتمد فيها على التعميم الأعمى .

أما (ميشال مسلان) فيرى هشاشة النظريات الفرويدية و عجز بعضها أمام الوقائع التاريخية و العلمية ، و رغم ذلك فإن (مفهوم الإيمان) عند فرويد غير النظرة التقليدية للإيمان و النظرة إلى الإنسان المؤمن رغم أنه كان ذو معنى منحط - إذ يرتبط بالرغبات و العقد الجنسية المحرمة- على عكس ما يؤكد اللاهوتيون من أن أصله إلهي و مطلق ، يقول (مسلان) : " التحليل الفرويدي للإعتقاد يبقى دائما في مستوى عملي فهو يحلل شيئا فشيئا معنى السياقات الدينية الإنسانية كاشفا جانب الدفاع و العدوانية و الهوامات التي تظهرها تلك السياقات ، و لكن للإنسان فقط الذي أصبح واعيا بالدوافع العميقة لإيمانه أن يقرر إمكانية التجاوز أو الانحباس في تلك المرحلة الطفلية التي يكشفها له التحليل النفسي ، و لأن الإنسان ليس له من الشجاعة ما يكفي لتحمل وطأة واقعه باعتباره كائنا محدودا محكوما عليه بالموت فإنه يلتجئ إلى آليات دفاع كان يهرع إليها و

هو طفل صغير ضد مختلف أشكال الخوف ، و كما اكتسى أبوه الممثلن قناع المقدرة الكلية فإن (الإله الأب) هو الرد الواعي لرغبته و النتاج الوهمي لإحباطاته و قلقه و رغبته كإنسان²⁷، و هذا يعني أنه ليس بمقدور كل أحد أن يصل إلى مرحلة إدراك و تصديق أنه يعيش وهما بإيمانه بوجود (إله) و حتى إن وصل إلى تلك المرحلة فلن يستطيع القيام بالخطوة الموالية و هي التخلي عن ذلك الوهم بسهولة لأنه شعور متجذر في طبع الإنسان فهو الإحتياج الأزلّي إلى (إله أب) يلجأ إليه في السراء و الضراء و هذا ما قالت به جميع النظريات اللاحقة (أصالة الشعور الديني في النفس البشرية) و يضيف رأيّه في الطرح الفرويدي : " ندرك دون عناء أن التأكيد الفرويدي أن الدين وهم قلب كل السياقات المعتادة للإنسان المؤمن إذ بلغ تأثيره و لو بطريقة غير مباشرة كل المباحث المخصصة لدراسة الظاهرة الدينية ، كما في تأمل الأديان مهما تكن التحفظات التي نستطيع اتخاذها حول المماثلة بين التطور النفسي للمجتمعات من ناحية و ما يتعلق بالأفراد من ناحية أخرى كما الشأن أيضا بالنسبة للفرضيات الخاطئة تاريخيا حول العشيرة البدائية و قتل موسى فإنه من اللازم الإعتراف بأن مزية فرويد مهمة فهو الأول الذي وعى أن كل علاقة للإنسان مع الإلهي تمر حتما عبر وساطة الأب²⁸ .

3. خاتمة:

- التحليل النفسي ليس منهجا لدراسة الأديان، و إنما هو مدرسة جاءت بنظرية جديدة في نشأة الدين و تحليل مكوناته بوسائل و أساليب علم نفس و هي واحدة من أربعة مدارس لعلم النفس المعاصر ، و كما أنها بنت صرحها على نتائج و تصورات من سبقوها فقد كان لها تميزها و تفردتها في النظر إلى الموضوع من زاويتها الخاصة ، و لم تكن الآراء التي تدخل تحت مظلتها واحدة بل كان لكل رائد من روادها رأيّه الخاص الذي يدافع عنه و يبرر له من خلال أبحاثه و

إستنتاجاته ، و قد اشتهر من رواها سيغموند فرويد و كارل غوستاف يونغ و أهم آرائها هي :

- تشبيه تطور الثقافة الإنسانية بالتطور النفسي للأفراد ؛ فكما يمكن أن نرسم مسار النمو و التطور النفسي لدى الفرد يمكن أيضا رسم مسار الترفي النفسي و العاطفي للإنسانية أيضا مدعيا وحدة الأنماط .

- تشبيه الشعور الديني و المواقف الدينية الناتجة عنه بالأعراض العُصابية الفردية ، فالظاهرة الدينية لديها مسار عُصابي محدد هو ؛ إنجراح منسي أثناء فترة كمون تحت عقدة أب مهيب ، و هذا الإنجراح سببه (أسطورة قتل الأب) من طرف الأبناء التي هي الأصل الأول لكل الأديان فكل المنظومات الدينية ليس لها هدف سوى محو آثار تلك الجريمة و التكفير عنها ، هذا بالنسبة لتفسير نشأة الدين في القبائل البدائية و التي شرحها في كتابه (الطوطم و التابو) .

● فسّر (سيغموند فرويد) نشأة الدين تفسيرين :

الأول ، شرحه في كتابه (الطوطم و التابو) و طبقه في كتابه (موسى و التوحيد) ؛ و هو العودة بأصل الدين إلى جذر نفسي غارق في القدم سماه (أسطورة قتل الأب) و دليل وجودها هو وجود المحرمات أو الطابوهات و هي : تحريم القتل (كبح لشهوة القتل) — تحريم النساء الأقارب (كبح لشهوة الجنس) ، بالإضافة إلى القوانين التنظيمية التي تحكم العلاقات و المعاملات في الجماعة (الأخلاق من الأوامر و النواهي) ، بالإضافة إلى تمجيد الأب الذي تحول إلى عبادته تكفيرا عن الذنب الذي ارتكبه الأبناء بقتله ، أما استمرار هذا الشعور بالذنب في لاوعي الجماعات البشرية و عبر العصور إلى اليوم فهذا يعود إلى ما سّماه (العُصاب الوسواسي الجماعي) .

أما التفسير الثاني ، فقد شرحه في كتابيه (مستقبل وهم) و (قلق في الحضارة) الذي يربط فيه بين الدين و بين شعور الإنسان الطبيعي بالضعف و العجز و التعاسة ، و هي مشاعر طفولية تستلزم وجود (أب حامي و عطوف) يخفف ألم تلك المخاوف و المآسي و هذا يوفره الدين بمكوناته و تلك المشاعر الطفولية أصبحت عقائد دينية ، لذلك فهو يتنبؤ بزوال الدين في المستقبل لأن العقل البشري تطور و سيستيقظ و يتحرر و يتقدم و سيتخلى عن تلك الأفكار البدائية بضرورة وجود أب حامي (الإله) و مشاعر دينية تربطه به (العقائد الدينية) .

● قلب مفهوم فرويد للدين ك (وهم) كل السياقات المعتادة عن (الإنسان المؤمن) ؛ إذ أثر على دراسات الأديان كلها رغم كل الأخطاء التي وقع فيها حين ماثل بين التطور النفسي الفردي و تطور المجتمعات و في اعتماده الأساسي على نظرية التطور البيولوجي التي طبقها في نظرياته و آرائه النفسية ، إضافة إلى أخطائه التاريخية حول القبائل البدائية و نُظمها إذ كان يعمم دون تمحيص ، و كذا حول بني إسرائيل و مسألة قتلهم النبي موسى ، إضافة إلى ربطه كل علاقة للإنسان بالله بواسطة الأب أي أنه جعلهما متماثلين ؛ إذ أصبح الإعتقاد سائدا في إمكان دراسة الشعور الديني و تحديد جذوره و دوافعه الأولى و كذا تحليل ماهية التجربة الدينية و تفسير المقدس و الأسطورة و رموزها عن طريق فهم العلاقة النفسية و الروحية بين الأب و الأبناء .

● ساهمت نظرية فرويد في إثبات أهمية التعلق الوالدي أو وجود الأب في حياة الطفل المستقبلية و خاصة في جانبها الديني، كما أثرت في الآراء و النظريات السيكلوجية الحديثة المنطرة للإلحاد المعاصر و المبررة له و أهم من كتب و ألف في الموضوع عالم النفس الأمريكي (بول فيتز Paul Vitz) في كتابه (سيكلوجية الإلحاد ؛ إيمان فاقد الأب ، ترجمة مركز دلائل ، 2013) .

الهوامش:

- ¹ ليندا دافيدوف: مدخل إلى علم النفس ، ترجمة سيد طواب و آخرون ، الدرا الدولية للنشر و التوزيع —مصر ، ط3 (1992) ، ص 33
- ² ليندا دافيدوف : المرجع نفسه ، ص36
- ³ خزلع الماجدي : علم الأديان ، مؤمنون بلا حدود للنشر و التوزيع ، المملكة المغربية ، الرباط ، ط1(2016) ، ص 176
- ⁴ ميشال ميسلان : علم الأديان ، ترجمة: عز الدين عناية ، مركز الكلمة —الإمارات المتحدة (ابو ظبي) و المركز الثقافي العربي — بيروت (لبنان)، ط1(2009) ، ص 61
- ⁵ ليندا دافيدوف : مدخل إلى علم النفس، مرجع سابق ، ص 43
- ⁶ الأمراض العُصابية : أمراض عصبية منشؤها صراع داخلي يدور في لاشعور الإنسان بين غرائز الأنا الأعلى و غرائز الهو أي بين (مبدأ الواقع) و (مبدأ اللذة) .
- ⁷ مسعود أذربيجاني : علم نفس الدين ، ترجمة: دلال عباس ، مجلة الإستغراب ، عدد 3 ، ربيع 2016 ، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية ، بيروت ، ص 64
- ⁸ ليندا دافيدوف : المدخل إلى علم النفس، مرجع سابق ، ص 44
- ⁹ الماجدي : علم الأديان ، مرجع سابق ، ص 180
- ¹⁰ سيغموند فرويد : الطووم و التابو ، ترجمة: جورج طرابيشي ، دار مدارك للنشر ، الإمارات المتحدة —أبو ظبي ، ط1(2015) ، ص 133
- ¹¹ الطووم : موضوع مادي أحاطه الإنسان البدائي باحترام تطيري لأنه يعتقد في وجود علاقة خاصة بينهما ؛ الطووم يحمي الإنسان و الإنسان يُظهر له الإحترام بطرق شتى .
- ¹² سيغموند فرويد : الطووم و التابو ، المصدر السابق ، ص 198
- ¹³ التابو : مصطلح يُطلق على ما هو محظور من الأفعال و الأشياء لا لسبب عقلي أو عملي و إنما لسبب وهمي إعتقادي ويعتقد أن مخالفته تجلب الشر و الموت .
- ¹⁴ دانيال بالز : الدين و الشخصية ؛سيغموند فرويد ، ترجمة محمد محود طه ، مجلة العقلاي ، عدد 2 (يناير 2015) ، مركز الدراسات النقدية للأديان ، لندن ، ص 97
- ¹⁵ سيغموند فرويد : مستقبل الوهم ، ترجمة: جورج طرابيشي ، دار المدارك للنشر ، المارات العربية المتحدة — أبو ظبي ، ط1 (2015) ، ص 49
- ¹⁶ سيغموند فرويد: مستقبل الوهم ،المصدر السابق ، ص 21- 23
- ¹⁷ سيغموند فرويد : المصدر نفسه ، ص 51
- ¹⁸ سيغموند فرويد : المصدر السابق ، ص 54

- 19 سيغموند فرويد : مستقبل الوهم ، مصدر سابق ، ص 30
- 20 سيغموند فرويد : موسى و التوحيد ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار المدارك للنشر ، المارات العربية المتحدة — أبو ظبي ، ط 1 (2015) ، ص 228
- 21 سيغموند فرويد : موسى و التوحيد ، المصدر ذاته ، ص 308-309
- 22 سيغموند فرويد : موسى و التوحيد ، المصدر ذاته ، ص 309
- 23 سيغموند فرويد : الطوطم و التابو ، مصدر سابق ، ص 199
- 24 خزعل الماجدي : علم الأديان ، مرجع سابق ، ص 195
- 25 إيريك فروم : الدين و التحليل النفسي ، ترجمة فؤاد كامل ، مكتبة غريب — الاسكندرية — مصر ، د ط (2003) ، ص 16
- 26 إيريك فروم : الدين و التحليل النفسي ، المرجع ذاته ، ص 17 .
- 27 ميشال ميسلان : علم الأديان ، مرجع سابق ، ص 150
- 28 ميشال ميسلان : المرجع نفسه ، ص 150